العملُ شكرًا

جاء في سورة سبأ بعد ذِكْرِ شيءٍ مِن نِعَم الله (جلَّ وعلا) على نبيِّه داوُد وابنه النبي -كذلك- سليمان (صلى الله عليهما وسلَّم) أن الله أمَر آل داود جميعًا بقوله: ﴿...ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا...۝١٣﴾.

فكيف يعملون شُكرًا؟!

هل الشكر **عمَلٌ**، أم **وصفٌ** يقترن بهم وهم يعملون، أم **دافعٌ** يُحرِّكهم ويكون هو مقصودَهم بأعمالهم؟

وربما كان من النافع -هُنا- أن يُذكَر السؤال على طريقة أهل النحو والإعراب:

هل تُعرَب كلمة «شُكرًا» في الآية مفعولًا به، فيكون الشُّكر هو المعمول، أم تُعرَب حالًا للعاملين، أم تُعرَب مفعولًا لأجله؟

إذا اعتُمِد على ظاهر القواعد النحوية والمشهور منها، فإنَّ الإعراب الأنسب سيكون هو (المفعول لأجله)؛ لأن كلمة «شُكرًا» يُحَكَم عليها شكليًّا بأنها «مصدر» [أي تدل على الحَدَث المجرَّد من الزَّمن]، فيكون المعنى كما قال الزمخشري في (الكشاف): «اعملوا لله واعبدوه على وجه الشكر لنعمائه. وفيه [أي في هذا الوجه من الإعراب والتفسير] دليلٌ على أنَّ العبادة يجب أن تُؤدَّى على طريق الشكر». وهذا المعنى هو ما عليه جمهور المفسِّرين، أن الله (سبحانه وتعالى) قد أمر آل داود أن يعملوا بطاعته شُكرًا له على ما أنعم به عليهم...

وبالإضافة إلى ذلك يجد الباحث في أقوال المُعرِبين والمفسرين أنهم يقبلون إعراب كلمة «شكرًا» حالًا، فيكون ذلك وصفًا للعامِل حين العمل، أي (شاكرين)، وهو أمر جائز عند جمهور النحويين، ويكون التعبير بالمصدر –حينئذٍ– بدل الوصف الصريح من باب المبالغة في إثبات الصفة مع الإشعار بوجودها في العَمَل نفسِه حالَ صدوره من العامل...

كما قد يجد أنه يجوز إعراب الكلمة على أنها (مفعول مطلق) –أو بتعبير أدق: نائب عن المفعول المطلق– لأنهم يقولون بأن كلمة «اعملوا» في الآية تُؤَوَّل بـ(اشكروا)، فيكون المعنى: «اشكُروا شكرًا» فيكون ذلك تأكيدًا لمعنى أنَّ العمل ينبغي أن يكون على وجه الشكر...

وقد يجد الباحث أن الزمخشري وهو العالِم النحويّ والمفسِّر والبلاغيّ والمُتكلِّم لا يمنع إعراب كلمة «شُكرًا» في الآية على أنها (مفعول به)، فيكون الشكر بذلك هو العمل المطلوب...

* * * *

تستطيع (أيها القارئ الكريم) بعد هذا التطواف اللغوي –الذي أرجو أن يكون نافعًا لك، وفيه شيء من المتعة– تستطيع أن تقول بأن **الشكر عمَلٌ**، و**حالٌ**، و**دافع**، ويمكنك مع قليل من التدبُّر أن تعرف شيئًا من مقاصد القرآن حين جعل (الشُّكر) ضِدًّا –أو نَقيضًا– لـ(الكُفر) في مواضع عديدة، وتلحَظ فيها بصورة عامة أنَّ ذلك جاء معه تعدادٌ لشيء من نِعَم الله...

من ذلك مثلًا أن نبي الله سليمان (صلى الله عليه وسلم) قال بعد أن رأى نعمةً عظيمة من نعم الله، كما في سورة النمل: ﴿...قَالَ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيّٞ كَرِيمٞ ٤٠﴾...

وفي سورة لقمان: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا لُقۡمَٰنَ ٱلۡحِكۡمَةَ أَنِ ٱشۡكُرۡ لِلَّهِۚ وَمَن يَشۡكُرۡ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٞ ١٢﴾.

وفي سورة الإنسان بعد ذِكر شيءٍ مِن أصل خلقه: ﴿إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا ٣﴾...

وبالنظر إلى هذه الآيات وأمثالها في القرآن يتبيَّن أنَّ **الشكر دليلُ إيمانِ** العبد وتصديقه بأن النعمة من الله وحده لا شريك له، وأنه إنْ لم يقم بما يقتضيه ذلك تجاه المُنعِم (عزَّ وجلَّ) من اجتهاد فيما يُرضيه، فإنه بذلك يكون قد دخل في طريق الكفر الذي هو طريق الجاحدين بنِعَم ربهم...

كذلك تشير الآيات إلى أنَّ **الشكر** ليس مقصورًا على القول **باللسان** عبارات مثل «الحمد لله، والشكر لله»، بل ينبغي أن يكون سابقًا على ذلك وملازمًا له وتاليًا له (**الشكرُ بالقلب**) الذي يعني أولًا أن يعترف الإنسان بأنه يتقلَّب في نِعَم الله في جميع أحواله فيما يسُرّه وما لا يسُرُّه، وأنه ما مِن نعمة به أو بأحَدٍ مِن الخلق إلا مِن الله وحده لا شريك له...

وذلك الإقرار والاعتراف إذا استقر في النفس فإنه يدفع صاحبها إلى **شُكر** المُنعِم **بفِعل** كلِّ ما يستطيعه ممّا يُرضيه (عَزَّ وَجَلّ) قولًا وفِعلًا، فيكون حينئذٍ شاكرًا لربِّه في جميع أحواله، بقلبه وبلسانه وبجوارحه، لا يقصد بعَمَلِه أحدًا إلا الله وحدَه لا شريك، فيقوم بما أراده المُنعِم منه وهو الطاعة الخالصة، ويكون بذلك عمله هو الشُكر...

هذا، وسبيل تحقيق الشكر المطلوب وجماعه هو (التقوى)... اقرأ إن شئت في سورة آل عمران: ﴿...فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ١٢٣﴾ وذلك كله يقودك إلى الفلاح الحقيقي، اقرأ إن شئت في المائدة: ﴿...فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٠٠﴾

وإذا تأمَّلْتَ ما سبق وأضفتَ إليه أنَّ التوفيق إلى تحقيق التقوى والشكر هو في ذاته نعمةٌ تقتضي الشُّكر، والإنسانُ –لا شك– عاجزٌ عن ذلك؛ يتبين لك شيءٌ مِن حكمة قول الرسول (ﷺ) –كما في صحيح مسلم–: «قاربوا وسَدِّدُوا، واعلموا أنه لن يَنجُوَ أحدٌ منكم بعمَلِه». قالوا: «يا رسول الله، ولا أنتَ»؟! قال: «ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل».

فإنَّما العمل سببٌ يجعلنا نتعرَّض لرحمة الله ومغفرته وفضله، إنه (سبحانه وتعالى) عفُوٌّ كريمٌ يُحِبُّ العفوَ، وَسِعَت رحمتُه كلَّ شيء...

مصطفى حمدون أمين

باحث في اللغة العربية والفكر الإسلامي

الليلة الثانية من ليالي رمضان المبارك ١٤٤١هج